بسم الله الرحمن الرحيم

٨٦ ـ سورة الطارق

هى مكية . وآيها سبع عشرة . ـ

روى الإمام أحمد[١] : عن عبد الرحمن بن خالد بن أبى حبل العدوانىّ عن أبيه؛ أنه أبصر رسول الله ﷺ فى مشرق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصا، حين أتاهم يبتغى عندهم النصر. فسمعته يقرأ (وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ) حتى ختمها : قال فوعيتها فى الجاهلية وأنا مشرك . ثم قرأتها فى الإسلام . قال فدعتنى ثقيف فقالوا : ماذا سمعت من هذا الرجل ؟ فقرأتها عليهم. فقال من معهم من قريش : نحن أعلم بصاحبنا . لو كنا نعلم ما يقول حقًّا لاتبعناه. وروى النسائىّ[٢] عن جابر ، قال : صلى معاذ المغرب فقرأ البقرة أو النساء، فقال النبىّ ﷺ : أفتان أنت يامعاذ ؟ ما كان يكفيك أن تقرأ بالسماء والطارق والشمس وضحاها ونحو هذا ؟

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٣٥ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه فى : ١١ ـ كتاب الافتتاح ، ٦٣ ـ باب القراءة فى المغرب بسبح اسم ربك الأعلى .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ)

[٢] (وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ)

[٣] (ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ)

[٤] (إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)

« وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ * ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ » أى المضيء . كأنه يثقب ظلمة الليل وينفذ فيه ، فيبصر بنوره ويهتدى به . وسمى طارقاً لأنه يطرق ليلا . أى يبدو فيه .

قال الشهاب : الطارق من (الطرق) وأصل معناه الضرب بوقع وشدة يسمع لها صوت. ومنه المطرقة والطريق ، لأن السابلة تطرقها . ثم صار فى عرف اللغة اسما لسالك الطريق ، لتصور أنه يطرقها بقدمه . واشتهر فيه حتى صار حقيقة . وتسمية الآتى ليلًا (طارقاً) لأنه فى الأكثر يجد الأبواب مغلقة فيطرقها .

والتعريف فى (النجم) للجنس . وأصل معنى (الثقب) الخرق . فالثاقب الخارق . ثم صار بمعنى المضيء ، لتصور أنه ثقب الظلام أو الفلك . وفى إبهامه ثم تفسيره ، تفخيم لشأنه وتنبيه على الاعتبار والاستدلال به .

« إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ » أى مهيمن عليها رقيب . وهو الله تعالى ، كما فى آية[1] (وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيباً) فيحصى عليها ما تكسب من خير أو شر ،

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٥٢] .

وقد قرئ (لَّمَا) بالتخفيف فـ (إن) مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن ـ و (كُلُّ نَفْسٍ) مبتدأ و (عَلَيْهَا حَافِظٌ) خبره . و (ما) صلة واللام هى الفارقة . وقرئ (لما) بالتشديد على أنها بمعنى (إلّا) الاستثنائية و (إن) نافية والخبر محذوف . أى ما كل نفس كائنة فى حال من الأحوال، إلا فى حال أن يكون عليها حافظ ورقيب. و (كل) على هذا مؤكدة[٢] لأن (نفس) حينئذ نكرة فى سياق النفى ، فتعم .

قال ابن جرير[١] : والقراءة التى لا أختار غيرها فى ذلك ، التخفيف . لأن ذلك هو الكلام المعروف من كلام العرب، وقد أنكر التشديد جماعة من أهل المعرفة بكلام العرب. غير أن الفرّاء كان يرى أنها لغة فى هُذَيل . يجعلون (إلا) مع (إن) المخففة لمّا . فإن كان صحيحاً ما ذكر الفراء فالقراءة بها جائزة صحيحة . وإن كان الاختيار مع ذلك قراءة التخفيف . لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب . ولا ينبغى أن يترك الأعرف إلى الأنكر . انتهى .

وقد صح غير واحد ثبوتها. وبها قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة . واستشهد ابن هشام لها فى (المغنى) فراجعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ)

[٦] (خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ)

[٧] (يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ)

[٨] (إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ)

[٩] (يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ)

[١٠] (فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ)

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

« فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ » جواب لمقدر . والفاء فصيحة. أى : إن ارتاب مرتاب فى كل نفس من الأنفس عليها رقيب ، فلينظر الخ .

قال الإمام : قوله (فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ) بمنزلة الدليل على الدعوى المقسم عليها ، زيادة فى التأكيد . ووجه ذلك أن الماء الدافق من المائع الذى لاتصوير فيه ولا تقدير للآلات التى يظهر فيها عمل الحياة كالأعضاء ونحوها . ثم إن هـذا السائل ينشأ خلقاً كاملاً كالإنسان ، مملوءا بالحياة والعقل والإدراك ، قادراً على القيام بخلافته فى الأرض. فهذا التصوير والتقدير وإنشاء الأعضاء والآلات البدنية ، وإيداع كل عضو من القوة ما به يتمكن من تأدية عمله فى البدن ، ثم منح قوة الإدراك والعقل ، كل هذا لا يمكن أن يكون بدون حافظ يراقب ذلك كله ويدبره ، وهو الله جل شأنه . ويجوز أن يكون قوله (فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ) من قبيل التفريع على ما ثبت فى القضية الأولى . كأنه يقول: فإذا عرفت أن كل نفس عليها رقيب ، فمن الواجب على الإنسان أن لا يهمل نفسه ، وأن يتفكر فى خلقه. وكيف كان ابتداء نشئه ليصل بذلك إلى أن الذى أنشأه أول مرة ، قادر على أن يعيده . فيأخذ نفسه بصالح الأعمال والأخلاق . ويعدل بها عن سبل الشر . فإن عين الرقيب لا تغفل عنها فى حال من الأحوال . انتهى .

و (دَافِقٍ) من الدفق . وهو صبٌّ فيه دفع . وقد قيل إنه بمعنى مدفوق ، وإن اسم الفاعل بمعنى المفعول . كما أن المفعول يكون بمعنى الفاعل[1] كـ (حِجَاباً مَّسْتُورًا) .

والصحيح أنه بمعنى النسبة كـ (لابن وتامر) أى ذى دفق ، وهو صادق على الفاعل والمفعول . أو هو مجاز فى الإسناد . فأسند إلى الماء ما لصاحبه مبالغة . أو هو استعارة مكنية أو مصرحة بجعله دافقاً . لأنه لتتابع قطراته كأنه يدفق بعضه بعضاً أى يدفعه . أو دافق بمعنى منصب من غير تأويل ، كما نقل عن الليث . أقوال .

وقوله تعالى « يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ » أى من بين صلب الرجل ونحر المرأة .

(١) [١٧/ الإسراء / ٤٥] .

قال الإمام : الصلب هو كل عظم من الظهر فيه فقار . ويعبر عنه فى كلام العامة بسلسلة الظهر . وقد يطلق بمعنى الظهر نفسه إطلاقا لاسم الجزء على الكل و (الترائب) موضع القلادة من الصدر، وكنى بالصلب عن الرجل وبالترائب عن المرأة. أى أن ذلك الماء الدافق، إنما يكون مادة لخلق الإنسان، إذا خرج من بين الرجل والمرأة ووقع فى المحل الذى جرت عادة الله أن يخلقه فيه ، وهو رحم المرأة . فقوله (يخرج) الخ وصف لابد من ذكره لبيان أن الإنسان إنما خلق من الماء الدافق المستوفى شرائط صحة الخلق منه .

وقال بعض علماء الطب: الترائب جمع تريبة وهى عظام الصدر فى الذكر والأنثى. ويغلب استعمالها فى موضع القلادة من الأنثى ، ومنها قول امرئ القيس[1] :

* ترائبُها مَصْقولة كالسَّجَنْجَل *

قال : ومعنى الآية أن المنىّ باعتبار أصله وهو الدم ، يخرج من شىء ممتد بين الصلب ـ أى فقرات الظهر فى الرجل ـ والترائب أى عظام صدره . وذلك الشىء الممتد بينهما هو الأبهر (الأورطى) وهو أكبر شريان فى الجسم يخرج من القلب خلف الترائب ويمتد إلى آخر الصلب تقريباً . ومنه تخرج عدة شرايين عظيمة . ومنها شريانان طويلان يخرجان منه

---

(١) صدر البيت : * مهفهفةٌ بيضاء غيرُ مُفاضَةٍ *

وقائله امرؤ القيس من معلقته التى مطلعها :

قِفَا نَبْكِ من ذِكْرَى حبيبٍ ومنزلِ بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

المهفهفة : اللطيفة الخصر ، الضامرة البطن .

المفاضة : المرأة العظيمة البطن المسترخية اللحم .

الترائب : جمع التريبة ، وهى مواضع القلادة من الصدر .

السقل والصقل (بالسين والصاد) : إزالة الصدأ والدنس وغيرهما .

السجنجل : المرآة . لغة روميّة عرّبتها العرب ، وقيل بل هو قطع الذهب والفضة .

بعد شريانى الكليتين ، وينزلان إلى أسفل البطن حتى يصلا إلى الخصيتين ، فيغذيانهما . ومن دمهما يتكون المنىّ فى الخصيتين ويسميان شريانى الخصيتين ، أو الشريانين المنويين فلذا قال تعالى عن المنىّ (يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ) لأنه يخرج من مكان بينهما وهو الأورطى أو الأبهر. وهذه الآية، على هذا التفسير، تعتبر من معجزات القرآن العلمية. وهذا القول أوجه وأدق من التفسير الأول . انتهى .

وقوله تعالى : « إِنَّهُۥ » أى الحافظ سبحانه ، المتقدم فى قوله (لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ) أو الخالق المفهوم من خلق « عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ » أى رجع الإنسان وإعادته فى النشأة الثانية، لقادر . كما قدر على إبدائه فى النشأة الأولى « يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ » أى تظهر وتعرف خفيات الضمائر .

قال الزمخشرىّ : السرائر ما أسرّ فى القلوب من العقائد والنيات وغيرها، وما أخفى من الأعمال . وبلاؤها تعرّفها وتصفّحها، والتمييز بين ماطاب منها وما خبث « فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ » أى من قوة يمتنع بها من عذاب الله وأليم نكاله . ولا ناصر ينصره فيستنقذه ممن ناله بمكروه . يعنى أنه فقد ما كان يعهده فى الدنيا إذ يرجع إلى قوة بنفسه أو بعشيرته ، يمتنع منهم ممن أراده بسوء . وناصر حليف ينصره على من ظلمه واضطهده . ولم يبق له إلا انتظار الجزاء على ما قدم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ)

[١٢] (وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ)

[١٣] (إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ)

[١٤] (وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ)

[١٥] (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا)

[١٦] (وَأَكِيدُ كَيْدًا)

[١٧] (فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا)

« وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ » أى المطر . يسمى رجعاً لأنه تعالى يرجعه وقتاً فوقتاً إلى العباد ، ولولاه لهلكوا وهلكت مواشيهم « وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ » أى النبات ، لأنه يصدع الأرض أى يشقها . أو الانشقاق بالنبات . فهو علم أو مصدر « إِنَّهُ » أى القرآن الكريم « لَقَوْلٌ فَصْلٌ » أى حق فارق بين الحق والباطل « وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ » أى بالكلام الذى ليس له أصل فى الفطرة ولا معنى فى القلب ، بل هو جدّ الجدّ « إِنَّهُمْ » أى المكذبين به ، الجاحدين لحقه « يَكِيدُونَ كَيْدًا » أى يمكرون مكراً لإبطال أمر الله وإطفاء نوره « وَأَكِيدُ كَيْدًا » قال ابن جرير[1] أى وأمكر مكراً . ومكره جل ثناؤه بهم إملاؤه إياهم على معصيتهم وكفرهم به. يعنى أن الكيد هنا استعارة تبعية أو تمثيلية. بتشبيه إمهال الله لهم ليستدرجهم، بالكيد. وبهذا يظهر تفريع أمره بإمهالهم فى قوله « فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ » أى لاتستعجل عقابهم . وقوله « أَمْهِلْهُمْ » بمعنى (مهلهم) فهو بدل منه للتأكيد . أو تكرير بلفظ آخر للتأكيد . وقوله « رُوَيْدًا » أى قليلًا .

قال الإمام : وفى ذلك وعيد شديد لهم بأن مايصيبهم قريب ، سواء كان فى الحياة الدنيا أو فيما بعد الموت . ثم فيه الوعد للنبىّ ﷺ بل لكل داع إلى الحق الذى جاء به، أنه سيبلغ من النجاح مايستحقه عمله ، وأن المناوئين له هم الخاسرون .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٠ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .